الفنان عبد الحي مسلم .. لكل لوحة قصة

بديعة زيدان

بدأ الفنان الفلسطيني عبد الحي مسلم الرسم في العقد الرابع من عمره، بدأت الرسم في العام ١٩٧١، يقول عبد الحي مسلم، أنا رجل عسكري عملت في سلاح الجو الاردني ما بين العامين ١٩٥٥ و ١٩٧٠، ثم غادرت الاردن على اثر احداث ايلول الى سوريا ثم الى ليبيا، حيث عملت خبيراً في سلاح الجو بعد أن أرسلتني حركة فنح الى هناك مع مجموعة من المهندسين والطيارين والفنيين.

كان ميلي للفن واضحا في كافة مراحل حياتي والساحات التي خدمت فيها، إلا أن الاخوة في حركة فتح أرادوا أن أكمل عملي في ميكانيكا الطائرات.. وعندما بدأت العمل الفعلي في مشروعي الفني، لم يكن التوجه واضحا بالنسبة لي، لم يكن عندي أية دراية او دراسة مسبقة، ولكني لاحقا أدركت ان القتال من خلال الفن لا يقل اهمية عن القتال على الجبهة فللفن رسالة سامية وكبيرة اذا سخرت بالشكل الصحيح، واذا تم دعمها لتخدم قضية كالقضية الفلسطينية، وخاصة اذا وجد الفنان مؤسسة تهتم به وبفنه، إلا أنني لم أجد تلك المؤسسة فكانت جهودي فردية بحتة فاجتهدت وسعيت وبنيت علاقات خارجية بجهد فردي مني.

للحديث المتدفق والتلقائي لمسلم متعة خاصة، فهو ينتقل بك من موضوع إلى آخر، دون مقدمات، ولكن دون أن يفقدك عنصر التشويق في حكاياته .. في منزله بحي جبل القصور بالعاصمة الأردنية عمّان، كانت تجاعيد وجهه، والحشرجات التي تشارك الكلمات مساحتها في حنجرته ترسم لوحات من نوع آخر، لوحات تنبش في الذاكرة.

"أنا لست أهم من الشهداء، لست أهم من الشهيد الذي يحمل السكين وهو مدرك تماما أنه سيقتل.. أنا من جيل كان مقتنعا تماما بما يفعل ومقتنعا تماما بالقتال في سبيل قضيتنا، وكان هدفنا فلسطين فقط، حيث انني تركت خلفي زوجة وسبعة اولاد لالتحق بالثورة في سوريا ... تركتهم

في معاناة حقيقية وكما قال المثل "احنا غزينا والعذارا تشوفنا" .. عانت زوجتي معي حيث أنها انتقلت بالاولاد السبعة الى سوريا ثم الى ليبيا وكانت رحلتها صعبة جدا، ثم من ليبيا إلى الاردن".

في مطلع سبعينات القرن الماضي، بدأت رحلتي الفنية، وبدات ألمس اهمية ما اقوم به وجدواه، فبدأت أركز على عملي الفني ورسالتي.

الدوايمة

طفولتي، كانت في قرية الدوايمة غرب الخليل.. كانت بعيدة كل البعد عن الفن.. كان تفكيري من الصغر ينصب على القتال وحلمي ان اكون مقاتلاً، وما دفعني في عمر متأخر نسبيا الى الفن، أو بمعنى أدق أن مسيرتي الفنية كانت أقرب الى ردة فعل عنيفة، وتعبيرا عن غضب داخلي بعد انتقالي إلى ليبيا، وبعد أن تم ابقائي في مهمة اصلاح الطائرات.

معارض

علاقاتي كانت واسعة شملت السويد وفنلندا والنرويج وفرنسا وأميركا ولبنان وغيرها العديد من الدول التي اقمت فيها معارض فنية، فردية او ضمن جماعات وعبر شراكات مع موسسات او فنانين عرب وعالميين.

في لبنان كان معرضي الأول العام ١٩٨٢ في منطقة الفاكهاني، كنت اعمل على الرصيف، اعمالي كنت انجزها على الرصيف، واعرضها على الرصيف ايضا.. كنت اضع سلاحي بجانب المقعد الذي اجلس عليه، واصنع لوحاتي، ما اثار انتباه الصحافيين الى هذا الفنان الذي يصنع لوحاته من مواد بسيطة وعلى الرصيف بدون اي دعم مادي.. بعد الحصار انتقلت الى تونس ونقلت لوحاتي معي كنت احمل لوحاتي اينما اذهب فهي اغلى ما املك.

اما معرض صبرا وشاتيلا، فتم بتعاون ياباني.. كان لي صديق صحافي ياباني كان هو اول من دخل صبرا وشاتيلا بعد المجزرة مباشرة.. في يوم قصف شديد استمر ١٤ ساعة، وبعد هدوء القصف نزلنا الى الشوارع فوجدت لعبة في الشارع حملتها معي كانت اللعبة مليئة بشظايا القصف.. وضعتها في معرضي وكتبت حتى لعب الاطفال لم تنج من القصف ما لفت اليها العديد من وسائل الاعلام ومؤسسات حقوق الانسان.. طلبتها مني مؤسسة يابانية واخذت العمل حتى انها لم تعده إليّ حتى الان.

معرض الرصيف هذا لفت انتباه الكثيرين، وقد زارني الشهيد القائد ابو عمار مرتين، ولدينا صور

كثيرة معه .. لم تجمعني مع السياسيين اية علاقة .. كانت كل علاقاتي مع فنانين وكتاب ومثقفين، حيث انني انشغلت بعملي الفني.

مع محمود درويش

لم تربطني بمحمود درويش علاقة قوية، اذ كان ضمن الطبقة الاولى اما انا فكنت من الطبقة الاقل حظا، الا ان محمود درويش زارني برفقة إسماعيل شموط، زارا المعمل الخاص بي، واحضرا لي غراء ونجارة للعمل.. وكانا مستغربين كيف اعمل تحت القصف، كان ذلك في العام ١٩٨٢ في بيروت.

كانت اشعار محمود درويش تستفزني للعمل، وخاصة ما يتعلق بصبرا وشاتيلا، كانت أشعاره تحرضني على العمل، حيث كنت أحول القصيدة للوحة فنية، وخاصة الحزن في القصيدة .. ارسم الحزن والظلم في القصائد، وبما اننا شعب ضحى كثيرا، وتألم اكثر، فقد كان انتاجي غزيرا بغزارة الالم الفلسطيني .. كنت اشتري بكل ما في جيبي غراء، ونشارة للعمل، واحيانا اقتطع من مصروف ابنائي لأعمل.

غراء ولوحات وأفلام

قبل الهجرة كان لنا جار نجار كنت اجلس عنده اراقبه كيف يعمل، ومنه استقيت فكرة الغراء والنجارة، حيث كان يستعمل هذا المعجون في سد الثقوب في الخشب.. كنت في البداية ابرد الخشب واستعمل المسامير، واعمل كتل بالغراء لأشكل بها ما يشبه المنحوتات/ تماثيل.. في البداية كنت اصنع كتلاً صغيرة، ومن ثم بدأت محاولاتي في تكوين لوحات تضم عدداً من الشخوص لتشكل شيئاً ما مثل العرس الفلسطيني، مثلاً، حتى وصلت لاستخدام الاغاني والاشعار والامثال الشعبية الفلسطينية في لوحاتي.

نشارة الذهب هو اسم الفيلم الذي اخرجه المخرج محمد مواسي وهو فلسطيني يعيش في المانيا حضر خصيصا لرؤية الاعمال وتنفيذ فيلم حول تجربتي وحول اعمالي، ومن قبلها كان مخرج فرنسي أنجز فيلماً عني وعن اعمالي.. الكثير من الافلام رصدت حياتي واعمالي الفنية.. شعرت بالاهتمام من الجميع خارجيا إلا أن الاهمال لي ولأعمالي كان من المؤسسة الفلسطينية، وها هي لوحاتي واعمالي التي يتجاوز عددها ٣٠٠ لوحة مركونة في مخزن لا يصلح لذلك في جبل القصور بعمّان، ولا يوجد اي اهتمام من اية جهة فلسطينية رسمية، .. الفنان دون دعم لا يستطيع، لان ذلك يحتاج إلى امكانيات كبيرة.

أقسام

أحببت ان اترك مسلم، الذي تجاوز التسعين عاماً على سجيته، فلم أقاطعه، وإنما كانت لي بعض التدخلات، ولذا يبدو الحوار، وإن كنت من طرح غالبية الأسئلة، منساباً أحياناً، ولربما مشتتاً، ففي كل مرة سأعيد ركل الكرة باتجاه مسلم، الذي قال: أقسم عملي الى اربعة اقسام: قسم عن مذابح ارتكبت بحق الشعب الفلسطيني، وقسم عطاء الشعب الفلسطيني، والثالث التراث والفلكلور من اغاني شعبية ولباس وغيره، والرابع عن جزء من حركات التحرر العالمية مثل جنوب افريقيا والسنغال ونيكاراغوا.. من خلال اسفاري وتنقلاتي تعرفت على حركات تحرر وقوى داعمة لنضال الشعب الفلسطيني، وشكلنا فريقاً باسم عدد من الدول الاسكندنافية- وانا عضو مؤسس في هذه المجموعة، والوحيد بينهم فلسطينيا وعربيا.. في سوريا اصبح الوضع سيء، واصبح نقل اللوحات اكثر صعوبة.

محلياً

لم يتم تنظيم اي معرض لي في الاراضي الفلسطينية، الا انني فرحت بتكريمي من قبل ادارة متحف محمود درويش بالجائزة التي تحمل اسمه، حتى لو جاء هذا التكريم متأخرا، ولكن أن ياتي متاخرا أفضل من أن لا يأتي أبداً.. في فلسطين طاقة فنية وثقافية جميلة جدا وفعالة.. شعرت انني عوضت قلة الاهتمام بي محلياً من خلال معارضي التي تم تنظيمها عالميا.. اشتغلت سنوات طويلة، وانا محسوب على حركة فتح، لم يطبع لي بطاقات تعريف، ولم يطبع اي بروشور حتى.

الحلاج ودحبور

مصطفى الحلاج تعرفت عليه في العام ١٩٧٩، وتعرفت على احمد دحبور عن طريق مصطفى الحلاج في احدى السهرات، وكلنا تجمعنا في ضيافة مصطفى الحلاج، وكان من اصدقائنا خالد ابو خالد، ويحيى يخلف ايضا، وقد حضر الى معملي والقى نظرة على لوحاتي وصور جزءاً منها واخذ الصور الى ماجد ابو شرار.. قال لي خالد ابو خالد اننا سننظم مؤتمراً في بيروت، وارسلوا لي دعوة، وهناك تعمقت علاقتي بمصطفى الحلاج الذي توفي حرقاً، وقد كان خبر وفاته صادماً لي ولغيري، لأنه كان فقيراً، لكنه شخص رائع وصديق صديقه فعلا.. الحلاج ودرويش واسماعيل شموط كلهم خسارة للفلسطينيين جميعا.

وضع حي

توقفت عن العمل من سنة تقريبا حيث انني لم اعد استطيع النزول للمرسم.. وضعي الصحي ونظري لم يعودا يساعداني.. لوحتي عن الشهداء: شهداء الانتفاضة الاولى، اخذت مني ستة أشهر من العمل، وكانت اللوحة عبارة عن متر في ٨٠ سم، وهي تعتبر من اللوحات الكبيرة حجما واهمية في لوحاتي.

كنت اعمل في خمس او ست لوحات في نفس الوقت، فالافكار تكون قد هجمت علي في نفس الوقت، وكنت اقوم بعمل الملامح المهمة للوحة، ثم انتقل للوحة ثانية ثم ثالثة، وكنت انتهي في وقت متقارب جميعها معا.. كنت، وبينما اعمل في لوحة معينة واستمع الى الراديو ولمغن معين، وخاصة اذا كان مغن عراقي مثل الياس خضر أو شاعر مثل مظفر النواب.. اترك اللوحة وانتقل الى أخرى مباشرة.

اذا كنت اجلس مع ضيف قادم من الضفة الغربية وبينما يروي قصة معينة عن مهاجمة الاسرائيليين لقرية معينة كنت اقوم بعمل لوحة ترصد ما تحدث به ضيفي مباشرة.. كنت اعتمد كثيرا على اهل الضفة واحاديثهم.

كثير من الأمور كان بودّي أن أقوم بها، ولم يسعفني الوقت، فالمرض كان أسرع.. أتمنى الاهتمام الاكبر بالجيل الجديد من فنانين ومثقفين فيوجد بينهم العديد من المواهب المهمة.

واعترف مسلم: لا اعرف ان امسك القلم وارسم وجهاً، على سبيل المثال، او اي شي، فأنا لست قادراً على التشكيل المباشر بالغراء والنشارة.. لا ارسم الطبيعة ارسم تراثا فقط.

موهبتي فطرية

وختم: لا استطيع تقييم الفن بشكل تحليلي اكاديمي، لأن موهبتي فطرية لم تأت عبر الدراسة، ولم اصقلها بدراسة، بل اشتغلت لوحاتي بأحاسيسي، فكنت اعمل ما اتأثر به، واشكل لوحاتي دون رسم، اشكلها مباشرة بالغراء والنشارة مباشرة على اللوحات، فمثلا لوحة زفة العروس على الجمل، ونساء ورجال باللباس الفلكلوري، ولكل لوحة قصة.